بعفوية واخلاص، طاقاته الشعرية للتعبير عن هموم نفسه المحزونة؛ مما وفر لها كل سمات القصيدة الناجحة من معجم لفظي وصياغة، ومن خيال وتصوير وموسيقى تقوم العاطفة الانسانية الصادقة بمثابة ماء الحياة في اشباع هذه المقومات ولحم نسيجها وينجلي هذا الموقف مجسدا حيفا، مدينة الشاعر، بكل ما يحمله لها من ذكريات وحب، من خلال عيني حبيبته كلما أشرقتا عليه، فهو يطل فيهما على حيفا، إذ تشرق عليه من سوادهما:

فلقد رأيت بلحظ عينك إذ رنت ... والتيه يكحلها بميل تدلل
«حيفا» وشاطئها الحبيب، وسفحها ... وذرى تعالت للسماك الأعزل
ومنى تقضت في فسيح رحابها ... وهوى تولى في الشباب الأول
عين رأيت بسحرها وفتونها ... أحلام عهد بالصفاء مظلل
ولمحت بين سوادها وبياضها ... ظل الصنوبر في أعالي «الكرمل»
فاذا رنوت الى لحاظك تائها ... من سرها في جنح ليل أليل
متعثر اللحظات، مشدوه الأسى ... أهفو لحظ مدبر او مقبل
وأنا أرود بلهفتي وصبابتي ... ألق البسنى من وجهك المتهلل
فتلفتي، لا تعطفي جيد الحيا ... عني، ففي عينيك غاية مأملي...!

وتقدم هذه القصيدة نمطا حيا على نجاح المزج بين الحبيبة والوطن[٥٢]، من خلال موقف انساني خالد.. هذا النمط الذي استغرق فيه ونماه كثيرون من شعراء فلسطين فيما بعد، ولا سيما الشاعر العظيم محمود درويش الذي وحد، حقا، وعلى مدى أرحب، بين المرأة، أما او اختا او حبيبة، وبين فلسطين... انفاسا ونسيج حياة.

والبحيري سابق أيضا في الاحساس بمثل هذا التوحد بين الوطن وبين مظاهر الطبيعة الجميلة، وربما أشبهه في ذلك من جيل شعراء فلسطين الذين سبقوه عبد الكريم الكرمي (ابوسلمى) في لمحات من بعض قصائده. ونموذج على ذلك من شعر البحيري مقطوعة «أنفاس الوطن»[٥٣] التي نظمها في طريق دمشق ــ الربوة ــ دمر صيف عام ١٩٥١، على لسان «ذات حنين» تسأل:

أختُ، ما سر الشذا في زنبق
حير الأدمع في خد الزمن
فأجابتها بلحن شارد
رن، فاهتز له عطف الفنن
يا ابنة الأيك، ويا أخت الشجى
أرج الزنبق أنفاس الوطن

ولا غرو أن يتمثل عارفو البحيري مدينة حيفا في سحنته وفي ملامحه، كما يتمثلون البحيري مَعْلما من معالم المدينة، وفيهما معا وداعة لاتتناهى، وجدة لاتخبو على الزمان... كأنهما تبادلا شرائح بعض السمات فيهما... أكسبها شيئا من سمات الانسان، واكسبته شيئا من سمات الطبيعة. وحيفا بالنسبة اليه هي الأم والأب والغذاء والهواء. وهي كذلك السهد والحلم بجفنه كلما جن الليل، والسهم والألم بجنبه كلما انبلج الصباح:

ما جن ليل على مُغْف ولا يقظ